الباب الرابع

شهادة النساء ـ المرأة تشوه وجه الحقيقة غالباً ـــ قضية لوفقر ـــ قضية موسييه ـ قابلية المرأة للتأثر بما يلقي في وهمها ـــ الهستيريا ـــ قضية سجريرا ـــ السيدات الملبوسات بالجن في بلدة لودون ـــ قضية لارونسيير ـــ شهادة الاطفال ـــ قضية روفييه ـــ تجارب بروارديل ـــ تجارب برن ـــ اكاذيب الطفل ـــ قضية بيكا وربو ـ قضية تيزا ادلار

كذب المرأة ركن مهم من أركان التمثيل في الملاهي والقصص في الروايات ولولاه لما تيسر لمؤلفي الروايات التمثيلية والقصص الخيالية ابتكار حوادث رواياتهم الآخذة بالألباب ولولاه لما استطاع القصصي ألفونس دوديه في روايته « الكاذبة » وصف المرأة وقد حضرتها الوفاة في الآونة التي ظهر فيها كذبها إذ كانت تحاول التنصل من الأجابة على اسئلة فصرفت وجهها نحو الحائط لتستعين على الأنكار ولزمت الصمت وهي على هذه الحالة حتى فاضت روحها وأني أحمد الله أن سواد قراء القصص والمتفرجين في

التياترات لايدركون الغرض الذى يرمى اليه مثل الشاعر (أوسكار وايلد) فى مؤلفاته القصصية من دسّ سموم الفسق والفجور وإثارة المشاكل التى يسببها جمال المرأة وكذبها

وليس بغريب أن تلجأ المرأة الى الكذب لأنها تتلقاه مع ماخلص لها من تراث العصور السالفة التى كانت فيها أقرب الى الرق منها الى الحرية وأطوع للرجل الذى كان يعاملها معاملة الهمج والمتوحشين من بنانه ولاشك فى أن هذه السلطة الاستبدادية موجودة حتى الآن وإن تكن قد تغيرت فى الشكل فقط وما سلاح المرأة التى تدفع به همجية الرجل واستبداده إلاّ الظهور فى مظهر الضعف المؤثر فى النفس والابتسام الذى يسرى فعله الى القلب سريان الكهرباء والتعويل على المكر فى أغلب تصرفاتها .

على أن هذه النقائص يذهب بها جلال وظيفة الأمومة التى تقوم بها ولنذكر ماقاله (ماريون) فى كتابه «الحالة النفسية للمرأة» : «لاندرى الى أين يذهب بنا فى هذه

الدنيا الحب المجرد من المنفعة والحنان والسرور بتضحية النفس لوكان قلب المرأة غير موجود » على أنها لاتؤدى هذه الوظيفة العجيبة إلا بعد الرضوخ لشهوات تعادل فى شدتها القتل فأن الأم لثقتها بنفسها يسهل عليها التوفيق بين ميول النفس ومقتضيات المصلحة فتمر بين عواصف الحسد وشهوات النفس مرور الضعيفة المنتصرة ومع أنه من المتاح للرجل أن يلاحظ قلة الوفاء فى كثير من النساء فأن القاضى يأبى التسليم لهذه الحقيقة بل تراه يسلم بتأكيدات المرأة ويأخذ بأقوالها بلا تمحيص فى حين أنها قد تكون أثناء أدائها لشهادتها حاقدة على المتهم أو مدفوعة بباعث من الحب لغيره وهناك أسباب عديدة لتسليم القاضى بأقوالها قد بحثنا فى البعض منها وقلنا فيه أن القاضى يفرض دائماً صدق الشاهد خصوصاً إذا كان هو المجنى عليه

لم يكن المشرّع مؤلفاً روائياً ولا قصصياً ولا باحثاً فى الاحوال النفسية للمرأة لذا يرى القاضي أنه غير ملزم

بعلم مالم يعلمه المتشرع . ولقد عنى الدكتور (بوردان) ببيان الفساد الذى يدخله المرء على الحقيقة بصرف النظر عن مركزه فى الهيئة الاجتماعية بدون أن يتيسر لنا التأكيد بأن هذه الاكاذيب التى ولدها حب المزح ثم استعين بها على قضاء الشهوات أو اتخذت ذريعة للدفاع أو الهجوم فى معترك الحياة ستقف عند حد أمام القاضي وبعد أن يقسم الشاهد ألا يقول إلا الحق

إذا كان كل إنسان قادراً على كتمان فكرته فأن المرأة معرضة بطبيعتها ومركزها الاجتماعى وعدم اعتبارها اليمين أو كلمة الشرف كتعهدات عظيمة لارتكاب الغلط بأرادتها أكثر من غيرها . وفى سجلات القضاء أمثلة كثيرة على الغلطات القضائية التى سببتها شاهدات الزور فقد حدثت فى سنة ١٨٣٥ عدة حرائق ببلدة (جروزوف) لاسيما فى عزبة رجل اسمه (شبلان) حيث تكرر الحريق خمس مرات فقبض على المسمى (لوفقر) راعى أغنام (شبلان) ولكن الحريق تواتر حدوثه بالرغم من ذلك

فاحتيط لمعرفة الجانى فأدى الاحتياط الى القبض على الخادم (بليزنس) التى كان بينها وبين (لوفقر) رابطة صداقة وقد اعترفت هى وإياه بانهما أشعلا النار غير أنهما ذكرا أن فعلهما هذا كان بايعاز من المدعو (ديهور) أحد أرباب الاملاك ببلدة (ايفرو) وزاد لوفقر على ذلك أن قال إن (ديهـور) أعطاه المئتين والخمسين فرنكاً التى وجدت معه حين إلقاء القبض عليـه كأجرة له على ارتكاب ذلك الجرم وتوسعت (بليزنس) في التأكيد بأن (ديهـور) هو الذى أغراهما على ارتكاب الجريمة فقبض عليـه وحوكم أمام محكمة الجنايات معهما في ٢٥ مايو سنة ١٨٣٥ وحدث خلال المرافعة حادث دلّ على عـدم اهتمام القضاة بتسهيل مهمة الدفاع عن المتهم لأنه بينما كان المحامى عن (ديهـور) يدافع عنه اعتراه مرض خطير فبدلاً عن أن تؤجل المحكمة القضية الى دور تال أجلتها أربعة أيام فقط وتولى الدفاع عن المتهم بعد هذا الميعاد المحامى (برييه) وكان دفاعاً بليغاً مدعماً بالبراهين القاطعة إلاّ أن المحلفين قرروا إدانته

وحكموا عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة ودفع تعويض قدره ٢٣٠٠٠ فرنك وعلى لوففر بمثل هذه العقوبة القاسية أما (بليزنس) فبرئت ساحتها .

نظرت القضية بعد ذلك أمام محكمة النقض والأبرام فقررت أن محكمة الجنايات بأمهالها المتهم اربعة أيام فقط لم تراع حدود الضمانة التى يمنحها القانون للمتهم وحكمت بأعادة النظر فى قضية (ديهور) أمام محكمة (اللوار) الأسفل فى أول ديسمبر سنة ١٨٥٣ فحكمت عليه بنفس العقوبة التى حكم بها عليه أولاً وعلى أثر ذلك اجتمع تسعة عشر محاميا من محامى محكمة (روان) وحرروا استشارة أعلنوا فيها براءة المتهم ديهور ونظرت محكمة النقض والأبرام فى طلب جديد قدم اليها بنقض الحكم فلم يسعها إلا نقض قرار محكمة اللوار الأسفل وإحالة المتهم على محكمة جنايات السين

وكانت حوادث الحريق خلال هذه الأجراءات متتابعة فى ضواحى (جروزوف) التى كانت (بليزانس) من

سكانها فانتهى الأمر باكتشاف أنها هى التى كانت تشعل تلك النيران ويتبرئة ساحة (ديهور) بعد أن قضى فى السجن الاحتياطى اكثر من خمسة عشر شهراً .

ونذكر هنا بالمناسبة ان الحكم بأدانة (سوسييه) سنة ١٨٨٣ كان مبنياً على شهادة الزور من احدى الفتيات واليك شرح هذه الحادثة :

فى ٢٤ ابريل سنة ١٨٨٣ قدم الى محكمة جنايات (لوار وشير)رجل يدعى (أوزين سوسييه)الحطاب فى بلدة (ويسو سور كوسون) بتهمة التعدى على العفة وكان الرجل متزوجاً وله من زوجته أولاد فنظرت المحكمة قضيته فى جلسة سرية برياسة المستشار(توش)وكان هو الشاهد الوحيد للأثبات . والذى يؤخذ من قولها أن الجريمة وقعت يوم ١٦ يونيو بغابة (شانبورد) فبالرغم من إنكار المتهم ومن شهرة الفتاة بسوء السلوك حكم عليه بالاشغال الشاقة خمسة عشر عاماً فما سمع المتهم منطوق الحكم حتى أتى بمظاهرات تدل على مبلغ الألم من نفسه فأنه كان يضرب

برأسه الحاجز الذى يقف المتهمون عنده ويرمى بنفسه على الأرض صائحاً صيحات الغضب واليأس فاضطر رجال الحفظ الى رفعه بأيديهم بينما كانت والدته وزوجته تصيحان بأصوات تمزق الأحشاء ويبلغ صداها الى أعماق القلوب الرحيمة

وأرسل سوسييه تنفيذاً للحكم الى ليمان كاليدونيا الجديدة فلما كان يوم ١٨ مايو سنة ١٨٨٦ أى بعد أن قضى فى الليمان ثلاث سنوات قدمت الفتاة (بيشون) وهى التى ادعت ان سوسييه عبث بعفتها الى محكمة جنايات (لوار وشير) بتهمة انها قتلت في ٢٥ أبريل السابق ولدها البالغ من العمر أربعة أشهر ونصف بأن ألقت عليه حجراً من أحجار السنانين فسحقته سحقاً ثم خنقته بيديها.

ولقد اعترفت بارتكاب الجريمة وكان الجالس على كرسى الرياسة المستشار توش الذى نظر فى دعواها الاولى على الحطاب سوسييه قبل ثلاثة أعوام فتذكر أن هذه المرأة كانت الشاهدة الوحيدة فيها ثم قال فى نفسه إن المرأة

التى تقتل ابنها بتلك القسوة والشناعة لمن أيسر الأمور عندها ان تكذب على القضاء . لهذا ابتدرها بقوله إن سوسييه كان من عشاقها فهل ألحق بها أذى في يوم من الايام فأجابت: كلا. . بل أنى كثيراً ما اجتمعت على هذا الرجل من قبل وفي اليوم الذى زعمت أنه اغتصبنى كان وجودى معه بمحض إرادتى وإذا كنت قد قاومته هنيهة فأنما كان ذلك منى بفتور ومن غير همة. فقال الرئيس : لقد كانت نتيجة اتهامك إياد صدور الحكم عليه بالاشغال الشاقة خمسة عشر عاماً فأنت إذن كاذبة فى شهادتك . فأجابت: « أى نعم أنا كاذبة » فصدر الحكم عليها بالاشغال الشاقة خمسة عشر عاما لقتلها ولدها ثم اتهمت بشهادة الزور فلما احيلت على محكمة جنايات لوار وشير حكم عليها من أجلها بالنفى عشرة اعوام وتاريخ هذا الحكم ١٥ اغسطس سنة ١٨٨٦

أما سوسييه فقد توفى قبل أن يعترف القضاء بغلطه فى الحكم عليه ولكن براءته سطعت سطوع الشمس فى

رابعة النهار

هاتان القضيتان من القضايا المهمة وهناك قضايا غيرها لاحصر لعددها تدل على أن كذب المرأة كثيراً مايسوق الأبرياء الى مواقف المتهمين وسبب ذلك راجع الى ماخصت المرأة به من سرعة التأثر والانفعال بما يلقى في روعها حتى أنها إذا وقفت كشاهد بين يدى قاض حاذق استطاعت بشهادتها أن تفضى بالتحقيق الى نتائج مدهشة

إننا لم نتكلم حتى الآن إلا على المرأة التى ترتكب الجريمة بقصد ارتكابها ولاتحاسب ضميرها قبل اقترافها إياها فاذا تكلمنا الآن على المرأة الهستيرية فلا بد لنا من الأحاطة بعنصر من العناصر الفعالة في الغلطات القضائية

وأنه ليكفى أن ننطق بكلمة هستيريا لتبرق الأسرة وتلمع العيون وتمر على الشفاه نسمة السرور فتبعث فيها حركة الابتسام وينصرف فكر المفكر الى أكابر الشهيرات بالعشق والهيام في حين أن العلماء (لوجران دوسول) و(بروارديل) و(شاركو) بذلوا قصارى الجهد لمحو أثر الاعتقاد

الذى يذهب بالكثيرين الى اعتبار كل امرأة هستيرية امرأة استعبدتها الشهوات البدنية

والهستيريا من الأدواء الخصيصة بالنساء إلا أنها تصيب الرجال فى أحيان نادرة قل أن تجاوز نسبتها خمسة فى المائة فاذا صح تقدير لوجران دوسول النساء الهستيريات بباريس سنة ١٨٩١ وحدها بعدد ٥٠٠٠٠ وفرضنا أن ١٠٠٠٠ امرأة منهن تعتريهن نوبات ظاهرية فقد أدركنا وجوب اهتمام القضاة بمثل هذا الأمر الخطير

على أنه لا يبرح عن بالنا أن هناك أسباباً عامة تثقل كفة الأدانة نذكر منها إدمان الشراب والافراط فى التدخين واستعمال المورفين والأثير والاستعاضة عن القواعد الدينية في تعليم النشء بالآداب المدنية والميل الى البذخ والحركة الدائمة التى تقتضيها الحياة الجديدة فأن تأثير هذه الاسباب أفضى الى انتشار ضرر الهستيريا الآن أكثر منه قبل ١٧ عاماً. وللهستيريا درجات متفاوتة تبتدئ من الأحوال العصبية البسيطة ثم تمر بالاضطرابات

الخفيفة حتى تبلغ الى الهستيريا التى يتصلب فيها الجسم (الآخذة) والجنون الهستيرى . والهستيريا فى نوعيها الأخيرين تعرف بسهولة ولكنها فيما عداها لا يسهل على القضاء التفرقة بين أنواعها

والهستيريا من العوامل التى تخفف من مسئولية المتهم أو تمحوها بالمرة وتحمل الشاهد على الكذب والتلفيق فى شهادته . إن رجال القضاء ليعذرون إذا لم يميزوا بين المصاب بالهستيريا وبين غيره ولو طابق الوصف الآتى الذى وصفها به الدكتور بروارديل الحقيقة. قال : « المرأة الهستيرية شديدة الفطنة والذكاء يبتهج الانسان الى سماع أقوالها بما امتازت به من المهارة والسهولة فى سرعة الانتقال من موضوع الى آخر ويهمها فوق ذلك أن تحل من نفس رائيها محل الاعجاب بها ولو لم تكن متجملة بوسائل الزينة وهى تميل الى مداهنة من تحدثه ويسرها أن تراه مهتما بأمرها وبالجملة فالمرأة الهستيرية هى المرأة الفاتنة »

وإنه ليسوء العالم بالأحوال النفسية أن يعلم أن المرأة

الهستيرية هى التى بناءً عن ماتقدم من وصفها تلقى القبول فى غرف قضاة التحقيق أو فى غرفة الجلسات إذ لايخفى أن القاضي مهما بلغ من صلاحه وتقواه بل مهما كانت صلابته فى الآداب كثيراً مايتعرض بغير شعور منه الى الخضوع للتأثير السارى اليه من الجنس اللطيف حتى أنه سرعان مايخدر مع تيار هذه الميول فيرى أن من وجوه الأثبات الابتسام والرشاقة والجمال.

ولم يهتم الاطباء بمسئلة الهستيريا إلا منذ ظهرت الأعمال والتجارب الجليلة التى قام بها العلامة (شاركو) وغاية مايعلم من أمر هذا الداء فيما تقدم من الزمان أن بعض ذوى العقول الراجحة من أهل القرن الثانى عشر قد جعلوا وجوده محلا للشك وقد ورد فى عريضة مقدمة الى قضاة ذلك العهد عن فتاة فى وصاية رجل متزوج مايأتى : « إن صاحبة هذا الالتماس البالغة من العمر خمسة وعشرين عاما مصابة منذ سنوات بعاهة ناشئة عن الأبخرة الهستيرية التى متى تصاعدت اضطرب لها عقلها الى درجة تصير معها

كالمعتوهين » ولا يزال هذا المرض العصبي الغريب مجهولا من أغلب الأطباء حتى من بعض الأطباء الشرعيين ولاحظ (لوجران ديسول) هذا النقص فقال إن المرافعات أمام القضاء أظهرته اظهاراً بيناً .

ويهمنا فى هـذا المقام الألمام بما اتصفت به المرأة الهستيرية من الكبرياء التى لاحدّ لها والميل الشديد الى لفت الانظار نحوها والاهتمام الكثير بأظهار شأنها لاتهولها فى ذلك الوسائل المؤدية اليه حتى أنها لتذهب في ذلك مذهب اتهام نفسها بجرائم لاوجود لها إلا فى مخيلتها ويتفق لها فى أحوال كثيرة أنها بدلا عن اتهامها نفسها تتهم غيرها من الأبرياء. وإذا نظر الانسان الى الجراح التى تشوه جسمها وتأمل فى اضطرابها وكودة سحنتها بل لو سمع الرواية المؤثرة التى ترويها عن الحادث الذى تزعم أنه وقع لها لما صدق أن تلك الجراح صنع يدها وأن تلك الرواية التى تفننت فى تشييد معالمها ماهى إلا أثر من آثار استنباط عقلها المريض فالمرأة الهستيرية ممثلة من أتقن الممثلات أداء

لدورها المضحك وياسوء طالع من يجعله الشقاء عرضة لأحقادها بل ياشؤم نقيبة من يلقيه الحظ العاثر فى براثن حبها فأن المرأة الهستيرية مجتمع الأضداد وملتقى المتناقضات فليس من الغريب إذن أن تتلاقى فيها هاتان العاطفتان اللتان تبدوان لأول وهلة كأن لاصلة بينهما . ومن عادتها التفكه بتعذيب الناس حتى الذين لاشأن لهم بها لالباعث سوى الخضوع لذلك النقص المرَضى الذى يتصرف تأثيره فى أفعالها فهى إذا أدت شهادة كاذبة فليس من الضرورى أن يكون الباعث عليها مصلحة أو شهوة لأنها قديرة على فعل ما تريده بلا باعث يسوقها اليه غير إرادتها. قال (لوجران ديسول) إن المرأة الهستيرية لاتخشى شهادة الزور ولا اليمين الكاذبة كما لاتخاشى كتابة الكتب الغفل من الامضاء لذا لايستغرب أن تقدم المرأة الهستيرية شكواها الى القضاء متهمة الغير بحبسها وحجبها عن الانظار حتى إذا ظهر فساد دعواها تنازلت عنها ثم لاتلبث أن تقدمها من جديد قائلة أنها إنما أرادت بذلك التهكم على البعض

والانتقام من البعض الآخر وأن القضاء إذا حاول الوقوف على الحقيقة فيها فليس ببالغ أمنيته

ولابدّ من حسبان المرأة التى تتهم خادمها كذباً بأنها سرقت أشياء لم يكن السارق لها إلاهى فى عداد النساء الهستيريات وتنتظم معها فى هذا السلك العذراء التى عزت اقتراف الآثام الفظيعة الى بعض القسوس والموظفين وسائر من يخشون العار والفضيحة بالتصاق التهمة بهم حيث كانت تدعى تارة وقوع التعدى على عفتها وتزعم أخرى أنها حامل وتذهب فى طريق الاتهام متخبطة وتبلغ العماية منها أن تتهم أباها وأخاها والطبيب المنوط بمعالجتها

وفي سنة ١٨٦٤ أدخلت في إحدى دور الصحة امرأة هستيرية تدعى مدام (سجريرا) وكانت تذهب فى الخيال كل مذهب لأدمانها مطالعة القصص والروايات وتأتى فى سلوكها من الفضائح والعار ما أوجب إدخالها فى تلك الدار وفى أثناء إقامتها بها قدمت شكوى ضد زوجها وأخويه وثلاثة من كبار أطباء مدينة برشلونا ملصقة بهم أفظع التهم

وأشنعها وكانت تبكى البكاء المرّ أمام القضاة الذين رفعت اليهم الشكوى وتروى الحوادث التى وقعت لها بسببهم بلهجة عليها مسحة الحقيقة حتى أثرت فى نفوس القضاة تأثيراً لم يسعهم معه سوى الحكم عليهم جميعاً بالحذف فى سفن الحكومة بعضهم عشرين عاماً والبعض الآخر عشرة أعوام وكان لهذه القضية فى البلاد الأسبانية تأثير لا يعدله فى شدته سوى يأس أولئك الأبرياء لأنهم ما كادوا يسمعون النطق بالحكم حتى كأنهم أصيبوا بصاعقة من من السماء ولكنهم عادوا فخضعوا لأحكام القضاء والقدر بعد أن أيقنوا أن العدل المطلق لم يكن من شيم الأنسان

على أنهم بعد أن قضوا فى تلك العقوبة بضع سنوات قام عضو من جمعية الطب والأحوال النفسية بباريس رافعاً صوته ببراءة اولئك التعساء شارحا ظروف القضية وأدوارها فسمعت الجمعية نداءه وتولاها من جرائه الدهش والاستغراب وأخذت من فورها فى استجلاء غوامض تلك القضية وبعثت الى أكابر أعضائها صور أوراقها وانتهى

الأمر بأقناع السلطة بوجوب إعادة النظر فيها وقد أثبتت إعادة النظر براءة المحكوم عليهم وكذب المرأة التى اتهمتهم فعفى عنهم ورد اليهم شرفهم وغمروا بجزيل الرفد والأحسان

وما أكثر الغلطات القضائية التى تسببها المرأة الهستيرية ولا يعترف القضاء بوجوب إصلاحها فى القضية التالى ذكرها لولم يبادر القضاء الى القبض على المتهم بارتكاب الجريمة فيها لصدر الحكم بادانته بدون ان يستطيع أحد إظهار الغلط الذى ساق القضاء الى هذا الحكم

كان الزوجان س . . مقيمين فى قرية ب . . بمقاطعة (أور) وكانت الزوجة شرسة الاخلاق كثيرة الوقوع فى النوبات الهستيرية وبالتالى شديدة الغامة ثائرة الشهوة البدنية تحس كأنها لم تقض حاجتها من ذلك ففى ديسمبر سنة ١٨٩٠ اتهمت زوجها بمحاولته تسميمها فانتقلت المحكمة ومعها الدكتور بودرى من بلدة (إفرو) لمعاينة المكان فأرشدتهم الى إناء يحتوى زرنيخا وقطعة لحم مشوى شبعت بهذا السم زاعمة أن هذه القطعة كانت مخصصة لغذائها

وأنها لو أكلتها لفارقت الحياة فرأت المحكمة أن توفر قرائن الأثبات على الزوج وألقت القبض عليه وكانت الزوجة يومئذ ملازمة الفراش لمرض أصابها وفى الغد نهضت من سريرها وقد زال عنها السقم وظلت في حالة حسنة ثمانية أيام فلما كان اليوم التاسع أصابها جنون هستيرى أنطلقت بسببه هائمة فى الخلوات وأخذت تقوم بأعمال وأحوال غريبة لايماثلها سوى أعمال المجانين ثم توفيت فجأة فى اليوم التالى .

شرحت جثتها فوجد الاطباء خللا عظيما فى نظامها العضوى لاسيما فى الأحشاء وبعثوا بقناتها الهضمية الى الى بلدة (إفروا) لتحليلها كيماويا بمعرفة الدكتور لجران ديسول والدكتور بودرى فرأى هذان فيها مقداراً وافراً من الزرنيخ فى حالة انفصال وانحلال تشبه الحالة التى رأيا عليها السم الموضوع فى الأناء والذى شبعت به قطعة اللحم وقد سألتهما المحكمة عما إذا كان السم دخل فى جوف المرأة قبل إلقاء القبض على زوجها فأجابا سلباً وفى

الحال أطلق سراح الزوج الذى نعتقد أنه من المتهمين النادرين الذين استهطلوا غيوث البركات على الحبس الاحتياطى . لأن المحكمة بألقائها القبض عليه وإيداعها إياه السجن الاحتياطى لم يخطر ببالها أنها ستنقذ بريئاً من عواقب غلطة قضائية لا إصلاح لها .

هناك متهم آخر من هذا القبيل يدعى (كوفان) إلا أنه لم يكن ميمون النقيبة كالمسيو س . . اتهمته الخادم (مارى ميشيل) بقتل خليلته مدام (موتيه) فحكمت المحكمة عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة واتفق بعد مضى سنوات أن توجهت تلك الخادم ذات يوم الى كنيسة نوتردام دولاجرد بمرسيليا حيث كان أحد المبشرين يعظ الناس ويحذرهم من الكذب ويذكر لهم ما أعد من العذاب فى الآخرة للقوم الكاذبين . فما استقرت هذه العظة فى فهمها حتى خرجت هائمة على وجهها وقصدت مكتب النائب العمومى لتعترف له بأنها فيما شهدت به على كوفان كانت كاذبة ومزورة وأنها هى التى قتلت مدام موتيه لاهو

وذكر الدكتور (فتزهرمن) الاستاذ بجامعة (جراتز) الحادثة الآتية كمثال لحالة الشاهد النفسية . قال : اتهمت خادم عمرها سبعون عاماً ولها ولدان إحدى الفتيات بانها وضعت سراً وألقت بجنينها في البئر وأيدت هذه التهمة بأن مياه البئر لم تعد صالحة للشرب فلما فحصت البئر ولم يجد الباحثون شيئاً في قاعها تأكد القضاة أن الخادم كاذبة فى بلاغها فرفعت القضيه عليها بهذه التهمة وظهر من فحصها طبياً ونفسياً أنها مصابة باضطرابات عصبية وفساد فى الذاكرة وخطأ فى الحس وإغراق فى تخيل الخيالات الكاذبة .

هل المرأة الهستيرية مسئولة قانوناً وهل إذا حكم القضاء عليها يكون قد وقع فى خطأ كلى وجزئى ؟ سنجاوب على هذين السؤالين لدى الكلام على أهل الخبرة فى الباب المعقود لهم ولكن لامندوحة لنا هنا عن القول بأن المرأة الهستيرية المنفعلة بأرادة الغير والمتأثرة بما يلقى فى روعها كثيراً ماتذهب ضحية الوهم والخيال وأكثر

مايكون الوهم في الأحوال العصبية الأخرى حادثاً من طريق السمع والبصر إذ لاينبغى أن يفوتنا مالهذين العضوين من الأهمية العظمى فى استكشاف الحقيقة القضائية كما لايبرح عن بالنا أن الشهادة إن هى إلا نقل الأعمال أو الأقوال وقد يتفق أحياناً أن يتناول الخيال كثيراً من الناس بدرجة واحدة كما حدث عند راهبات (أرسولين) فأنه كان لهذه الراهبات قس واعظ يسمى (أربان جرنديه) وكان على شيء من جمال الخلقة فشغف الراهبات أجمعهن حباً وكانت الباذئة بذلك رئيستهن التى يؤخذ من أقوالها أن أربان جرنديه كان ينتظر ريثما يخيم الليل فيدنو من سريرها ويراودها عن نفسها وجاء بعد ذلك دور الراهبات الأخريات التى لم يلبث ذلك الرجل العجيب أن انتقل معهن من القول الى الفعل وأتى من العيث والاخلال فى الدير ما يأتيه الذئب مع قطيع الغنم وغاية الفرق بينه وبين الذئب أنه لم يكن مثل هذا في قسوته وبشدة افتراسه

لما رفع هذا الأمر الى القاضي (لوباردمون) أحال التهم التى كان مصدرها فى الحقيقة الهذيان الهستيرى الأجماعى محل الحقيقة وكانت النتيجة أن سيق ذلك المسكين الذى أوقعه جمال صورته في المهالك الى موقف الأعدام وأعدم فعلا إحراقاً بالنار ويا ليته مع هذا ذاق حلاوة الجرائم التى اتهم بها

ولا شك أن الآنسة (موريل) التى سببت شهادتها فى سنة ١٨٣٠ الحكم بالنفى عشر سنوات على الملازم (لارونسيير) بتهمة الضرب والتعدى على العفة كانت فى توجيهها التهمة الى هذا البرىء تحت حكم الخيال وعوامل الأعراض الهستيرية وبيان قضيتها أن (مدام موريل) كانت تقيم فى باريس لتربية أبنائها فجاءت فى شهر أغسطس من سنة ١٨٣٤ مع ابنها (روبير) البالغ من العمر اثنى عشر عاماً وابنتها (مارى) البالغة من العمر ستة عشر عاماً الى مدينة (سومور) لزيارة قرينها الجنرال موريل قومندان مدرسة الخيالة بها وكانت ترافق مدام موريل مربية انكليزية

الأصل تدعى (مس ألن) فما قضت مدام موريل فى بيت زوجها أياماً حتى وصلت الى ابنتها خطابات عديدة مذيلة بحرفى ا . ر . ومضمون هذه الخطابات بث لواعج الغرام من عاشق مدنف أو عبارات التهديد والوعيد . والظاهر على مايؤخذ من أدوار القضية أن ا . ر . لم يقف عند هذا الحد من علاقته بالآنسة موريل فأنها أتهمته فى شخص ذلك الملازم بالدخول في مخدعها قبيل الساعة الثانية بعد نصف ليل ٢٤ سبتمبر بأن كسر زجاج النافذة وأدخل يده من مكان الكسر ففتحها من داخلها ثم أزاح الستار ووثب في المخدع فرأت بعد يقظتها من النوم أن رجلا يتجه مسرعاً نحو باب الغرفة القائم بين مخدعها ومخدع المربية الانكليزية وانها لم تتمالك عندئذ أن انحدرت من سريرها بحركة غير إرادية والتجأت خلف كرسى ضخم اتخذته سياجاً حائلا بينها وبين ذلك المتدفق عليها في غرفتها فاستطاعت وهى فى هذا المكان التحقق من صفاته والذى يؤخذ من روايتها أنه متوسط القامة متدثر برداء

من الجوخ ومغطّ رأسه بقبعة من الجوخ الأحمر يحيط بها شريط فضي وحول رقبته غنباز أسود يستر أذنيه وأنه أى هذا الرجل أخذ على قولها تحدق النظر فيها ثم قال لها « إنى جئت هنا للانتقام وسأنتقم » وفى الوقت نفسه ألقى بنفسه عليها وانتزع منها الكرسى الذى كانت متعلقة به تعلق المتشنج ثم أمسك بها من كتفيها وبعد أن طرحها أرضاً خلع عنها قميص نومها وشدّ عنقها بمنديل ليمنعها عن الصراخ وحاط جسمها بحبل وارتكز بقدميه على ساقيها وبعد أن قيدها به ضربها على صدرها وذراعيها وعضها في يدها اليمنى وكان أثناء ذلك يقول لها إنه إنما أراد الانتقام بسبب ماحصل له في بيت والدها قبل يومين وبعد أن سكت هنيهة قال: « على أن انتقامى لا يقف عند هذا الحد بل لا بد لى من الأخذ بثارى من شخص كان يحرر رسائل غفلا من الأمضاء وسيكون انتقامى شديداً وهائلا » وكان كلما تقدم فى الكلام ازداد غيظه فضاعف الضرب الى أن قال : « إنى منذ عرفتك أنست منك شيئاً أوجد فى نفسى

الميل الى إلحاق الأذى بك » وما كاد يتم هذه الكلمات حتى استشاط غيظاً فاستولى على شئ لم تتمكن الفتاة من رؤيته وإنما تقول من باب الحدس والتخمين إنه سكين وطعنها بها طعنتين بين الساقين وأردفهما بضربات اخرى في نحديها ولما رأت الفتاة عجزها صاحت صياحاً تردد صداه فى أذنى مس ألن فقامت مذعورة من نومها ولما سمع الرجل همسها ودقها على الباب ومحاولتها إزعاجه من مكانه فكر فى العودة من حيث أتى وعندئذ همّ قائماً على قدميه وأومأ اليها قائلا : « لقد كفاها ماحل بها » وفى الآن نفسه وضع كتاباً على المنضدة ثم عاد من النافذة وقبل أن يختفى وراءها قال مخاطباً لشخص يظهر أنه كان شريكاً له في الجريمة : « الزم مكانك وامسك جيداً » ثم توارى عن الانظار .

لما تمكنت مس ألن من فتح الباب بعد أن أزعجته من مكانه وجدت سيدتها طريحة على الأرض غير قادرة على النطق وكان لباسها قميصاً واحداً وحول رقبتها غنباز

مشدود وحول وسطها حبل ضاغط وبالقرب منها على أرض المخدع ثلاث بقع من الدم تشهد بوقوع الجريمة فلم تجد مس آلن قميص النوم لا على جسمها ولا فى ناحية من نواحى الغرفة .

ولما رأت المربية سيدتها فى هذه الحالة أسرعت نحوها وبذلت لها من العناية ماجعلها تفيق من غشيتها إلا أنها لم تستطع حينما وجهت اليها الاسئلة العديدة عما حصل لها أن تجاوب بشيء لما فقدته من صوابها على أن المربية مازالت بها حتى استخصلت منها على تفاصيل الحادث برمته والذى يؤخذ من هذه التفاصيل أنها تعرفت على الرجل الذى هجم عليها فى مخدعها بالرغم من لثامه الأسود وانه هو بلا ريب الملازم رونسيير ثم فسرت كون مس ألن لم تسمع الضجة التى حدثت بأن الباب الفاصل بين مخدعيها كان مفتوحاً فاغلقه الجانى عقب انسيابه فى مخدع الآنسة موريل ولهذا لم تتمكن من سماع التدافع الذى جرى بين الهاجم والمهجوم عليها ولا ألفاظ التهديد والوعيد التى فاه بها .

ولما شرع فى تحقيق هذه القضية قال والد الفتاة إن ابنته ذكرت له عن الحادث عينه تفاصيل مناقضة لما تقدم إذ قالت إن الرجل كان ملطخ الوجه بالسواد وانها لم تستطع التعرف عليه للظلام الحالك وانها ذكرت لأمها غير ما اعترفت به لوالدها إذ أكدت أن الذى هجم عليها هو الضابط رونسيير .

ولا شك أن القضية كانت محاطة بأسرار غامضة يزيدها غموضاً أن الآنسة كانت مصابة فعلا بجراح وآثار ضربات وشىء يثبت حصول العبث بعفتها وأنها والمس ألن لم تستغيثا بأحد لاسيما وقتما هبت هذه المربية لاسعافها فى نفس الوقت الذى كان الجانى يحاول النزول من النافذة فيه أضف الى هذا أنهما لم تفكرا قط بعد ذلك فى الالتجاء الى غرفة أخرى غير ذلك المخدع المخيف لتكونا فى أمن وراحة بال بل كان من الآنسة بعد ذلك ان تمطت على سريرها ونامت أربع ساعات غير أنها عللت هذا الهدوء باحترازها من إقلاق راحة والديها وقال الدكتور (ركاميه)

الذى نيط به الكشف على المصابة فى شهادته أمام المحكمة « أن الآنسة موريل كانت مصابة بنوبات هستيرية شديدة اضطربت لها وظائفها المخية وأفسدت حواسها ولكن المحكمة لم تهتم بهذه الشهادة

ولم يغن المحامى عن المتهم جهاده فى اثبات فساد الدعوى الموجهة الى موكله واستناده على شهادة ذلك الطبيب المحترم ولم يجده نفعا تقرير الخبراء أن الخطابات الغفل من الامضاء إنما هى مكتوبة بخط الآنسة موريل لا بخط الضابط لارونسيير على الورق الذى اعتادت كتابة رسائلها عليه استشهد المحامون عبثاً بأن خطابات الشتم والتهديد الموجهة الى تلك الآنسة كانت لا تزال ترد عليها حتى بعد القبض على ذلك الضابط التعيس وأن الثقب الذى صنع فى زجاج النافذة كان لا يكفى لمرور يد الرجل منه وان المشاهد من حالته يدل على أن عمله لم يكن من الخارج الى الداخل بل من الداخل الى الخارج وانه على فرض حصول الثقب من الخارج الى الداخل بأن يكون صانعه تمكن من عمله بالصعود على سلم

للزم ان يكون فى خفة القردة ورشاقة حركاتهم ليستمكن من فعل مانسب اليه وأن الجانى المزعوم كان لابد له فى هذه الحالة من أن يترك على الجدار والكرانيش أثراً يدل على تسلقه إياها وأن شهادة السيدة (إليزارينو) خليلة المتهم صريحة فى كونه قضى عندها الليلة التى عزى اليه انه ارتكب الجناية فيها وانه لايعقل أن يكون قد خرج من حجرتها من غير علمها لوجود مفتاح الحجرة فى جيبها . كل هذه الأدلة الساطعة لم تنهض دليلا على براءة المتهم في نظر المحكمة لأن المحكمة كانت ترى أن القضية قائمة على شرف وكرامة رجل حائز على رتبة الجنرالية فى الجيش وانه لابد من الانتقام لشرفه فلم يسعها إلا الحكم على لارونسيير كمجرم أثيم من المجرمين

إنى أتمنى من صميم فؤادى ألا تضطر حاجة اتقاء الاحكام الجائرة أحداً الى إثبات ماتبنى هذه الاحكام عليه من غلطة قاض أو تزوير شاهد أو كذب مجنى عليه ينتمى الى بيت من البيوتات الكريمة أو الى طائفة من

من الطوائف ذات الحول والطول أو الى جمعية معترف بها من الحكومة فأنه إذا لم يكن الخطأ أو الكذب واضحاً كالشمس فعلى المتهم العفاء لأنه يعد مذنباً وما ذنبه فى هذه الحالة إلا أن الحق فى جانبه لا فى جانب من ساقه الى موقف الاتهام .

ومما ألقى الضابط لارونسيير فى وهدة الشقاء وزاده تعاسة أن الشهادات المدرسية عنه حين كان من طلاب مدرسة سوءور العسكرية لم تكن حسنة لأنه كان يعيش عيشة النعيم منغمساً فى الملاهى ومندفعاً في تيار الشهوات وكان المأثور عن ابنة الجنرال الحائز على لقب الكنتية والمتقلد قومندانية المدرسة العسكرية أنها تعيش عيشة التقوى والصلاح . فأذا قدمت شكواها ضد أحد متهمة إياه بتهم واضحة فلا يسع المحلفين إزاء هذه التهم وان تكن على ماهو معلوم من استحالة حصولها إلا إصدار حكمهم على المتهم بلا تردد ولا خوف من حساب الضمير .

ولقد استشهد المحامى (بربيه) بهذه القضية فى مرافعته

فأثبت أن الفصاحة فى المرافعات كثيراً ماتكون ضارة بأقضائها الى الخطأ ولو كانت لصالح تهمة يراد إقامة ادلتها على اعتبارات ذات مساس بالعواطف . سأل برييه المحامين قائلا : « ما الذى انتم صانعوه تجاه مرض غريب تظهر أعراضه فى حالة النوم فيأتى النائم بأعمال اليقظ أو فى حالة الآخذة أى تصلب الجسم أثناء النوم .

هذا وقد قضى الضابط لارونسيير مدة عقوبته وكاد يصير بسببها مجنونا لأن مساعى رئيس محكمة الجنايات التى حكمت عليه كان بالذات مقتنعا ببراءته والاطباء الذين اعتقدوا كذب الآنسة موريل فى تهمتها كانت قد ذهبت ادراج الرياح ولم يقتنع أولياء الامور بأن الحكم عليه كان عن خطأ وانه بناء على ذلك حكم جائر إلا فى سنة ١٨٤٩ فلم يسعهم إلا أن عينوه مفتشاً بالجزائر ثم حاكما لبلدة (سانبير) ثم حاكما لبلاد (تاييتى) حيث توفى سنة ١٨٧٤

* * *

لما نمى الى المسيو (جول غريفى) رئيس الجمهورية

الفرنسية فى سنة ١٨٨٨ نبأ توجيه التهمة الى المسيو (روفييه) العضو فى مجلس النواب بارتكاب فعل فاضح مخل بالحياء العام لم يتمالك ان قال : « إذا كان النساء والغلمان يتهمون روفيه فقد ألقى بنفسه في ورطة لا مخرج له منها »

هكذا نقل عن رئيس الجمهورية فاذا لم يكن هذا النقل صحيحاً فأن عدم صحته لا تنهض دليلا على انه لم يكن مصيباً فى قوله لأن المسيو غريفى كان من الذين وقفوا على أسرار الطبيعة الانسانية وأدركوا كنه الميول والاهواء البشرية وهو إذا أخطأ فأنما خطؤه لأنه اتخذ أخا صديقته مدام (پيلوز) زوجا لابنته (يريد به المسيو روفييه) على أن المسيو روفييه لم يلبث أن نادى ببراءة نفسه من التهمة الموجهة اليه وبلغ من أمره فى ذلك أن المسيو (دوفور) رئيس مجلس النواب قام على ملأ منهم قائلا أن أحدهم (ولم يذكره بالذات) مطلوب للمحاكمة فلم يسع المسيو روفييه وكان آنئذ نائبا عن مقاطعة الألب البحرية إلا أن وثب من مكانه وثبة استوى بها على متن المنبر وقال بلهجة

الصدق والصراحة إنه يطلب تحقيقا يذهب بمعالم التهمة المزرية التى ألصقت به على ماتستوجبه من الازدراء والتحقير وكان المسيو روفيه بريئاً براءة تدل على أن الغلمان الذين ألصقوا التهمة به وقالوا أنهم يعرفونه بالذات كانوا أثناء جهرهم بهذا القول تحت سلطان مؤثر نفسانى غير أن المحكمة تكلفت النطق بحكم البراءة وذهبت فى تعليله مذهب الشك حتى كأنها رأت أن تترك الريب الفاضحة تحوم حول ذلك الرجل الشريف بدون أن يجد الى صرفها سبيلا

واتفق بعد ذلك بثلاث سنوات أى عقب سقوط الحق بمضى المدة فى نظر الجناية أن برز الجانى الحقيقى من الخفاء وجهر بجنايته

ولا خلاف فى أن الغلمان كانوا فى هذه القضية تحت رحمة أحد المجانين أو أحد المجرمين وهم إذا عينوا شخصاً بذاته مؤكدين أنه مرتكب الجناية فما كان ذلك منهم . ويخيل لى أن مكانة المتهم كان فيها مايدعو القاضى الى إجراء تحقيق دقيق يتبين له به الخيط الأبيض من الخيط الأسود

ويوفر به على رجل برئ مؤونة صدور حكم عليه وكان بلا ريب يعد من الغلطات القضائيـة الفظيعـة لأنه كان لابدّ أن يخـلى الوطن الفرنسي من يد رجل فاضـل من رجال حكومتها وقادة الافكار فيها .

وإذا كان الغلام أكثر تعرضاً من غيره لارتكاب الغلـط وركوب متن الشطط فهل هو معرض كذلك لقول الـكذب ؟

إنا نسلم مع الفـلاسفة والعلماء البـاحثين فى الجـرائم والمجرمين أن الانسان يولد مفطورا على الشر فلقد اعترف القديس (اوجسناف) أن الشغف باللعب وبغيره من الملاهى الخصيصة بالغلمان كان كثيرا مايدفعه الى قول الكذب مرارا ليخدع به أساتذته وأهله ومن قوله فى هذا الموضوع ما يأتى : « وقع نظرى على غلامين دون السن الذى يستطيعان فيها الافصاح عن المراد على أن أحدهما كان يصيح بصيحات الغيظ لما انبث فى قلبه من الحسد للآخر والغيرة منه »

ولقد تـكلم لافونتين على الاولاد فوصفهم « بالجيل

المجرد من الرحمة » وفيما نظمه الشاعر فيكتور هوجو من حكاية « الحمار والصرار » ما يتلقى الاطفال به على لسان الحيوان درساً مفيداً في الانسانية والعواطف البشرية . وقد وصف العلامة (لومبروزو) الطفل فى كتابه « الانسان الجانى » بوصف هو النهاية فى الذم والتقبيح حيث ذهب فيه الى توفر وجود الشبه بين الغلام والجانى بفطرته وتنبه الاطباء (لوران) و(كزافيه فرنكوت) و (براوردل) (وموتيه) و (بوردان) و (موريس دى فلورى) لما فى الأطفال من النزعة الى عمل السوء وارتكاب الشر وعلى الخصوص منه الكذب .

وعزا المسيو ه . جولى في كتابه « الطفولة المجرمة » الانحطاط الأدبى فى نفس الطفل والمراهق اللذين يتوفر عادة فيهما الاستعداد لأتيان الرذائل الى الاشتغال فى المصانع الكبرى والتشرد من البلاد الريفية والانتظام منذ الصغر فى سلك الصناع المأجورين والميل الى تقليد الشبان فى التمتع بالشهوات وبالجملة الى سائر الاسباب العامة المولدة للجرائم

وقال بوردان : « إن الكذب من العيوب التى ينقاد اليها الأطفال انقياداً سريعاً ومن المؤكد أن الشهادة التى يؤديها الطفل ماهى إلا عنصر سريع التلاشى من عناصر الصحة والاقناع وكثيراً ماتكون عنصراً ممهداً للخطأ ومؤدياً الى مساقط الزلل والغلط .

وقد عرف الطفل بقوة الخيال والتناهى فى الكبرياء والقدرة الفائقة على استنباط القصص واختراع الأكاذيب وانه متى أراد أن يهيء سامعيه للتصديق بها لايتعذر عليه انتحال لهجة من لهجات الكلام تبدو عليها مسحة الصدق المقنع والأمانة فى الرواية والنقل

قال الدكتور موتيه : « مارأيت شيئا بلغ تأثيره من نفسي أعظم مبلغ كطفل يسرد تفاصيل جريمة زاعماً أنه شهدها مشاهدة عيانية لأن سذاجة تعبيره وبراعه تصويره تلفت نحوه أنظار السامعين وتجعلهم يقبلون عليه إقبالا تكون نتيجته استمالتهم الى الوثوق بصدق مايرويه عليهم » وأكثر مايكون خطر هذه الشهادات وضررها في

القضايا التى موضوعها الآداب

وجدير بنا الاعتراف بأهمية النواميس الفسيولوجية للتوالد وأعضاء التناسل ولما كانت هذه النواميس بالنسبة للطفل من الأسرار التى يحاول منذ نعومة أظفاره استجلاءها وإزاحة الستار عنها فقوته الخيالية تعكف عن العمل ونحن عنها لاهون وللظن بها محسنون لأن الرجل الكامل يأبى على نفسه التسليم بمضى الطفل الصغير فى تيار هواجس وأفكار كالتى يخالها غير متناسبة مع سنه

وقد اعتاد الوالدون المباهاة باعتدال أحوال أولادهم من الوجهتين الجثمانية والأدبية لأنهم أولادهم وأفلاذ أكبادهم على أن تلك الهواجس والأفكار لا تبرح ملازمة لهم حتى يرسخ فى نفوسهم حب الاستطلاع والشغف بالوقوف على حقائق الأشياء فلا يعودون الى الانخداع بما تتصنعه من الهيئات وتتكلفه من الرموز والأشارات والكنايات كلما ألمعنا فى حديثنا الى مايفيد مثلا معنى تناسل الأنسان من الأنسان .

ولو أن المصادفة أتاحت للطفل إيقاف يده طويلاً عند ذلك المكان الذى كان الأقدمون يصفونه بالقداسة أو لو أنه استسلم الى الأسرار التى يودعها عنده أحد أقرانه أو اقتدى به فى شنيع فعله وسوء تصرفه فأمعن فى استطلاع ماخفى عنه وغاب عن إدراكه فأنه لا يلبث أن يضنى جسمه ويضعف عقله بما ينكب عليه فى خلوته من الشهوات التى سماها الفيلسوف (جان جاك روسو) بالملاذ الميتة .

ومتى سلك الطفل هذه الطريق المحفوفة بالعثرات والصعوبات فسرعان مايصبح فى عداد الشهود الكاذبين المفترين . لأنه إذا فجئه أهله أو القائمون على تربيته وهو متلبس بجناية ذلك الفعل المرذول أو حاملا لأثر من آثاره فأنه يذهب فى تزكية نفسه والتماس الشفقة من سامعيه الى ادعاء وقوع جناية ذلك الفعل عليه من غيره

وإذا وقع بصره على أمر ما قام من فوره فعدّه مما يدخل فى أبواب الجرائم والآثام وإذا رأى شيئا ما بينه وبين عضو التذكير قرائن شبه لاتعنّ لخاطر فأنه

لا يلبث أن يعتبره أمراً فاضحاً ومتى أصمى الطفل المتهم بسهم التهمة فأنه لقوة ذاكرته لا يفتأ يسرد ظروف هذه التهمة بما يدهش السامع من المطابقة لما اخترعه من الأوهام والخيال

وذكر الدكتور براوردل عن فريق من بنات أصبن بالسيلان وهن فى الثانية من أعمارهن على أثر التصاقهن بينات مثلهن التجربة الآتى بيانها : سألهن الدكتور عن السبب فى وصول الأذى اليهن فكن إذا ترددن فى الأجابة ذكر لهن اسم شخص ذى حيثية معلومة من الناس قائلاً لهن لعله هو الذى أتى معهن هذا الفعل الشائن فسرعان مايؤمن على قوله وكان ينتظر ثمانية أيام ثم يتعهدهن بقوله السابق فيظهر له أنهن لم ينسين الأسم الذى ذكره قبلا لهن

والطفل كالرجل بل يفوقه فى استحضار مايقع بعيداً عنه من الحوادث التى تنقل المشاعر والحواس صورها اليه ومن ذلك اعتقاده أنه وحده العلة لوجود الكائنات المحيطة به فأذا مر لا يرضيه أن يمر بدون أن يتنبه الناس اليه

باعتبار أنه القائم بأهم دور من أدوار الرواية الكبرى التى يتقلب فيها الأشخاص وتتناوب الاشياء . فالطفل الصغير كالمرأة الهستيرية لاهمّ له إلاّ لفت الانظار اليه وإرغام الغير على الاهتمام بشخصه الصغير

وهاك مثلا على ذلك من أهم الأمثال وأشدها تأثيراً في النفس : تبنى الزوجان ى . . . وهما من المعروفين بالاستقامة وحسن السلوك بنتاً تركها أهلها لتصاريف القدر وكان من رقة هذه البنت ولطف شمائلها أنها أحلت نفسها من قلبيهما محلا لايسامهما فيه إلا من تكون ابنتهما من الصلب والرحم . وتداولت الألسنة وقتئذ خبر فضيحة وقعت باحدى المدن الكبرى وأوشكت محكمة الجنايات أن تقول فيها قولها الفصل فقرأ المسيو ى . . الزوج على مسمع من قرينته كل ماقيل فى الجلسات من الألفاظ المستورة والكنايات التى تشير الى حوادث لايقبل الحياء سردها بمبناها ومعناها . قرأ ذلك كله بدون أن يعبأ بالفتاة اعتقاداً منه بأنها فى السن الذى لاتدرك فيه مغزاة ماتسمعه

من هذا القبيل دع أنها كانت فى تلك الآونة تلهو بملاعبة عروسها غير أنه لم يمض طويل زمن حتى جئت مدام ى . . الفتاة فى بهو الاستقبال تلثم عروسها فيما بين الطرفين العاويين من ساقيها بعد أن حسرت الثياب عنهما . فلما سألتها عن ذلك أجابت أنها تفعل مع عروسها عين ما كان يفعل معها ثم شرحت ذلك فقالت مايؤخذ منه أن أهلها كانوا وضعوها عند مرضع لتقوم على تربيتها وأنها كانت كلما عمدت الى النوم نام معها غلام صغير كانت تسميه زوجها وأن هذا الغلام كان يفعل بها مايفعل الزوج وأنه كان يتناوبها فى مثل هذا الأمر كل من والده زوج المرضع وجده والد هذا الزوج .

ولا ننس أن نذكر هنا أن الفتاة كانت لاتتجاوز سنها حين اعترافها بهذه الحوادث خمسة أعوام وأن الغلام الصغير كانت لاتتجاوز سنه عشرة أعوام .

فلما سمع المسيو ى . . . وقرينته من ابنتهما هذا القول رفعا الأمر الى ذوى الحل والعقد الذين تبين لهم أنها لم

يمسها سوء وأنه لم يقدم أحديده الى ملامس عفتها .

ولقد جىء مع ذلك بالغلام وأبيه وجده وسئلوا جميعاً فى التهم الموجهة اليهم منها فلم يتمالكوا أن نادوا بالويل والثبور وعظائم الأمور . عندئذ وجه السؤال الى الفتاة تلو السؤال وضويقت بطلب التفاصيل عن بعض الحوادث فلم تلبث أن وقعت فى الحيرة واعترفت انها كذبت قائلة إنها أرادت أن تعمل « كما عملت السيدات التى ورد ذكرهن فى الجرنال »

ونقل الدكتور (بيريون) مشاهدة غريبة رفعها الى جمعية الهبنولوجيا عن فتاة كذوبة اتهمت عمها وابناء عمها بأتيان الفعل الفاضح معها جميعاً فذكر أنه نومها تنويماً مغنطيسيا ووجه اليها أسئلة علم منها أنها تعمدت الكذب وأن غشاء البكارة إذا كان قد حدث به تمزق فما هو إلا لانهماكها على الاستمناء منذ زمن طويل .

ومما لاريب فيه أنه إذا كان الأطفال كاذبين بدرجات متفاوتة فليس من المحتم أن يكون من الصفات اللاصقة

بهم جميعاً الاستعداد لتأدية الشهادات الكاذبة فيما يعرض على المحاكم من القضايا التى لهم بها بعض العلم ومما ينبغى الاهتمام به أن الطفل إذا رأى نفسه إزاء حادث خطير يستطيع أداء الشهادة بشأنه على وجه يطابق الواقع بقدر الامكان . ولكن الطفل الذى يجى الاتهام منه عفواً إذا وجهت اليه الاسئلة المحرجة ممن لهم عليه حق السيطرة والتأديب يطاوع على الدوام تقريبا تأثير العواطف التى تولد فى ذهنه الخواطر المزعجة والمشروعات المخيفة أو يعمل متأثراً بغريزة الدفاع عن نفسه

إن الطفل وقد تولاه الدهش وثارت في نفسه عوامل الكبرياء من جرّاء أخذ المحكمة بمضمون الرواية التى لفقها وصبغها بصبغة الحقيقة لا يعجز أن يبعث الى الليمان أو المشنقة كل انسان يكون صدور الحكم عليه بمثل تلك العقوبة حافظاً له هو — أى الطفل — من معاقبة أولياء أمره إياه بالضرب بالعصا أو الكرباج . وقد ذهب الى هذا الرأى (ج . فيليب) و (بول بونكور) والدكتور (بوردان) الذى قال :

« أصغيت لأقوال طفل ثم تأملت طويلا فى فعاله واختبرت تصرفاته فظهر لى ما ألقى في نفسي الاعتقاد المطلق بأن الطفل يسره الكذب وأنه بارع في استخدامه فى طبائعه الشريرة وميوله القبيحة ». قبل طفل فى السابعة من عمره بأحد المستشفيات فلبث به عاماً كاملا لاتنبس شفتاه فى خلاله بكلمة واحدة ففى ذات يوم بدرت منه كلمة لأحد الممرضين إذ قال إنه لا يريد الجهر بالسبب الذى أفضي الى وجوده بالمستشفى لأن والدته تهدده بالقتل إذا باح به ثم قص على الممرض قصة ظهر بعد بالاستقصاء أنها لم تكن صحيحة ولم يستطع أحد بعد ذلك أن يقف على السر الذى حمله على تكلف الكذب فى قوله . وقبل طفل آخر فى مستشفى فأملى أسماء قال إنها أسماء أبيه وإخوته وقد اتضح فيما بعد تعمده الكذب في قوله ونقل الدكتور موتيه قصة رواها على مسمع من طفل مقبوض عليه بتهمة التشرد وها هى بنصها :

« كان أبى رئيس بلوك فى الأورطة المعسكرة بثكنة

(البرنس أوجين) فلما قتل فى الحرب اشتغلت والدتى فى محل لبيع الأقمشة البيضاء وظلت تشتغل الى شهر أغسطس الماضى حيث أصابها مرض لزمت من اجله الفراش ثم ماتت وقد بقيت من بعد وفاتها وحيداً مع أخى الأكبر الذى كنت اجتمع عليه فى صباح كل يوم عند مدخل كنيسة المادلين فيساعدنى من ماله بما أسد به الرمق وهاقد مضت ثلاثة أيام لم أره فى خلالها فأمسك رجال الحفظ بناصيتى وأتوا بى الى هنا وكان آخر بيت أقمنا فيه قريبا من حىّ (التمبل) أما الآن وقد أصبحت ولا عائل لى فلا أمل فى حضور أحد للبحث عنى » وهى رواية ملفقة من أولها الى آخرها لأن والد الغلام كان يحترف بحرفة النجارة الدقيقة فلما غاب ولده طفق يفتش عليه حتى وجده بالحبس أما والدته فكانت قد ماتت حقيقة ولكن والده وضعه عقب موتها عند احد تجار البيانو للتعلم والتمرن فانقطع عن الذهاب الى محل عمله للتخلص من عقوبة كان لا بد ملاقيها لو توجه اليه وكثير من الاطفال الذين يهربون من المدرسة يعلاون

هربهم بأنهم لو توجهوا اليها لذهبوا فريسة التعدى عليهم من أناس لا يقصرون في إعطاء العلامات المثبتة لشخصيتهم وربما كانوا من أصدقاء أهلهم او من التجار الذين شوهدوا منهم واقفين على أبواب محال تجارتهم كذلك التاجر بائع القمصان الذى لم يستطع إثبات براءته إلا بشق الأنفس

وروت الصحف منذ أشهر حادثا غريبا فى بابه لأحدى سيدات (نورنبرج) المعروفات بالجاه وعلو المكانة . ذلك أن رجلا من رجال الحفظ تقدم اليها ومعه غلام فى التاسعة من عمره فما وقع نظر الغلام عليها حتى صاح بملء فيه: « نعم هى » فلم يسع الرجل إلا أن دعاها الى اقتفاء أثره حتى دار البوليس فلما توجهت اليها كاشفها المأمور بالتهمة الموجهة اليها من الطفل وهى أنها استدرجته الى الدخول في دارها وأخذت تلامسه ملامسة مخجلة . فما استقرت هذه الكلمات في أذنها حتى أظهرت السخط وصاحت وصخبت واحتجت الاحتجاج الشديد ولكن أولياء الأمر لم يرضوا بالرغم من براءتها الأفراج عنها فظلت معتقلة حتى ثبت لهم ان

الطفل الذى كان صبيّ خباز قد اخترع هذه الرواية تسويغا لانقطاعه المستطيل عن عمله فى المخبز

وما أسرع ما يشيد الطفل فى ذهنه علالى من الخيالات يخالها السامع لروايته حقيقة لاريب فيها ويستحضر صور أشخاص معلومين عنده انطبعت فى ذهنه لباعث ما من البواعث فيجعل منهم الممثلين القائمين بأدوار تلك الرواية . خذ مثلا لذلك أنه إذا وقع بصره على فحام استرعاه بلونه الاسود فانه لايتأخر عن اتهامه بأنه أبدى له سوأته وقد حدث مثل هذا فى مدينة (ألنسون) التى حكمت محكمتها الجنائية على فحام بالحبس عاما لتهمة من ذلك النوع ولولا أن الشاهد عدل فيما بعد عن شهادته وأقر بكذبها لبقى الرجل المسكين رهين الحبس

وإذا سقط الطفل مثلا في نهر على أثر حادث ساقه القضاء والقدر وكان ذلك فى يوم انقطع فيه عن المدرسة أو عن محل العمل الذى يتعلم فيه فانه لخوفه من العقوبة يسرد على مسمعك قصة مؤداها أن واحدا من الناس رام

قتله فألقاه في الماء ثم يذهب فى طريق البيان والأيضاح كل مذهب فيؤكد لك أن المجرم انما هو ذلك الموظف فى متحف التشريح الذى تقرب هيئته من هيئة الوحوش الضارية ويلقى منظره فى الفؤاد الروع والوسواس

واكثر ما يلقى الطفل التهم على أقرب الناس اليه من آله وزملائه وأساتذته فالطفلة التى أفسد أخلاقها أطفال آخرون من نسيجها إذا أوقع والدها عليها عقابا تستحقه لا يعوقها عائق عن الانتقام من هذا الوالد بألصاق أفظع التهم به .

وإذا أعطى الطفل درجات واطية عن الواجبات التى قام بها فى المدرسة أو إذا طبق عليه عقاب ما نظير تقصيره فى عمله فأنه لا يسعه إلا الاقتداء بالغلام الذى ذكر الدكتور (اميل لوران) أنه اتهم أستاذه بضربه على رأسه ضرباً مبرحاً حتى انزعجت خواطر أهله من هذه المعاملة القاسية وطلبوا من ناظر المدرسة ان يوقفهم على أسبابها وسئل الطفل عن اليوم الذى ضربه فيه أستاذه فأجاب أنه

ضربه فى الساعة الحادية عشرة من صبيحة يوم كذا أثناء درس النحو ثم تبين أن الاستاذ كان فى ذلك اليوم متغيباً عن المدرسة

وما من أحد إلا وقف على خبر الحادث القضائى المؤثر الذى ذهب الاستاذ (مارشان) ضحية له فأن بعض صغار التلاميذ انصاعوا إما لميولهم الشريرة وإما لأغراء ذوى الغايات فاتهموا ذلك الاستاذ بتهم مخلة بالآداب ومنافية لكرم الطباع ومع ثبوت براءته منها فى نظر الجمهور لم يعلن القضاء براءته الرسمية بعد

ولا ريب أن السيدة أرملة (ريو) أوفر حظا من الأستاذ مارشان بما توصلت اليه فى سنة ١٨٩١ من اعلان براءتها على الملأ وحمل القضاء على إظهار الخطأ الذى ذهبت ضحية فى سبيله. ذلك أن الفتاة (مارى بيكا) البالغة من العمر ١٤ عاما والمستخدمة عند مدام (دولاى) الخياطة ببلدة (إتش) من مقاطعة (بروفنس) اتهمت أرملة ريو بالسرقة إذ عزت اليها أنها دخلت فى محل مدام دولاى التى هى مستخدمة عندها فوقع

نظرها عليها أثناء خروجها حاملة قطعة من الجوخ وقالت إنها ذهبت فباعتها بفرنكين لرجل اسمه (كوميتى) وانها لما شهدتها ذهبت فى أثرها ولامتها على فعلها لم يكن منها الا ان لطمتها على خدها وألقت الرماد فى عينيها

وبالرغم من انكار المتهمة الأنكار الشديد أخذت محكمة الجنح باقوال الشاهدة مارى بيكا وحكمت على الأرملة بالحبس شهرا لارتكابها السرقة وتعديها بالضرب

واتفق بعد ذلك أن مارى بيكا خانت الأمانة ضد صاحبة العمل التى هي مستخدمة فى محلها فلما فتش رجال الضبط غرفة نومها عثروا على قطعة الجوخ التى اتهمت مدام ريو بسرقتها وحكم عليها بالحبس بسببها

ولا حاجة الى القول بان مارى بيكا اعترفت فيما بعد بأنها الجانية فحكمت عليها المحكمة فى ١٢ مارس سنة ١٨٩١ بالحبس أربعة أشهر لارتكابها جرائم السرقة والبلاغ الكاذب وخيانة الامانة وأصدرت محكمة مرسيليا بعد إحالة قضية أرملة ريو على محكمة النقض والأبرام

الحكم ببراءتها من الجريمة التى نسبت زورا اليها

فالواجب إذن على القضاة — وهو أمر من البداهة بمكان — ألا يأخذوا بالتهم التى يوجهها الأطفال إلا متسلحين بالحذر والاحتياط والتدبر بل يتحتم عليهم إذا لم يكن فى القضية من دلائل الأثبات سوى شهادتهم ألا يحكموا بعقوبة ما على المتهم . وإنه لمن المدهش ألا يزال الجنس البشرى متعثراً فى ذيول غلطات بعينها متنكسا في سقطات لم تتغير وان الجهود التى يبذلها علماء النفس والصحفيون والكتاب عديمة الفائدة وأن الانسانية التى تقطع الاشواط الواسعة فى طريق الصناعة مابرحت جامدة على الأوهام الباطلة والتقاليد الخليقة بالأزمان الغابرة

وإن القلب لينقبض والنفس لتشمئز وتمتعض كلما بحث الباحث فى الأسانيد المتعلقة بالجرائم القديمة فرأى آثار السقطات والأغاليط فيها ولو أنه رجع الى الأسانيد المتعلقة بالجرائم العصرية لأيقن توفر قرائن الشبه بينها وبين تلك . على أن العصر الحاضر هو عصر سهولة المواصلات

بالسكك الحديدية والمركبات الجوالة والطيارات وذلك العصر إنما هو عصر تعذرها بالمركبات المتثاقلة فى حركتها

ولقد كان قضاة القرن الثامن عشر يدركون وهن الآساس التى يقيم الشهود عليها شهاداتهم ويضنون بالثقة فى أقوال الاطفال بدليل أن المسيو (دى كارديك لومبال) الذى نيط به تحقيق سرقة اتهم بها رجل يسمى (جان دوفال) كتب الى النائب العمومى فى موضوعها ما يأتى :

« تبين لى أن السرقة المنسوبة الى جان دوفال لا صحة لها فأذا كان الشهود الباقون الذين سمعت شهادتهم لا يجيئون بشىء غير ماجاء به الشهود الذين بعثتم بشهاداتهم فان موضوع القضية إنما يكون بلاغا صادراً من طفل أعنى غير كاف للاقناع ولا معززاً بدليل ما »

ولا مشاحة فى ان المسيو كارديك كان عارفا بسهولة إرادة الطفل على قول ما يطلب منه أن يقوله لأن الطفل كالمرأة الهستيرية شديد التأثر بالمؤثرات والانصياع لما يوحى اليه من الافعال والاقوال وسواء أكان الانفعال

ساريا اليه من ذاته أم من القاضى الذى يوجه الأسئلة اليه أم من ذى مصلحة فى الدعوى أم من أحد أقربائه فأنه يورد القاضي موارد الخطأ ويدفعه على منحدرات الأغاليط . أضف إلى هذا مايعتقده العامة من « أن الحقيقة لا تعجها إلا أفواد الأطفال »

والآن وقد وقفنا على التجارب الغريبة التى أظهرت الأغاليط المسببة عن الشهادات بوجه عام لايسعنا غض الطرف عن مشاهدات الدكتور بريون العجيبة فى موضوع قابليـة الأطفال للتأثر سريعاً بالمؤثرات الطارئة عليهم والامتثال لأوامر الغير فأن الدكتور المؤمأ اليه تمكن بدون التجاء الى التنويم المغنطيسي كذريعة لتغليب إرادته على نفس المنوّم بأمر صريح او تأكيد أو إقناع من توليد الظواهر الآتى بيانها فى الاطفال وهى :

أولا — النسيان الجزئى

ثانياً — زيغ الذاكرة أى تذكرها الشيء منحرفاً عن حقيقته

ثالثاً — خطأها فى الحوادث الماضية وتواريخ وقوعها

رابعاً — شعورها بأمور غير صحيحة ولا واقعية

ولقد أمسك الدكتور بريون بيد غلام وقال له « اعطنى يدك ولا تفكر فيما سألقيه عليك وإنما عليك أن تصغى لكلماتى وإذا سألك بعد ذلك سائل عن اسم عائلتك الذى تعرفه بالطبع أكثر من غيرك فأنك لنسيك إياه لا تستطيع مجاوبته ولو أجهدت ذاكرتك ما لم أسمح لك أنا بذلك »

وفى الواقع فان الغلام بعد أن قدح فكرته وأجهد ذاكرته لم يوفق لمعرفة اسمه

وأجرى الدكتور بريون هذه التجربة على طفل آخر فى العاشرة من عمره إذ أكد له أن فلانا الذى فطر بالمنزل هذا الصباح لم يفطر وإنما تعشى مع أهله فلم يكن من الغلام إلا أن صادق على قوله . وأكد لطفل آخر أنه مر من طريق (سان دنيس) فرأى زحاماً فلما دنا منه نظر رجلين يتضاربان وأن أحدهما قتل الآخر بسكين وأن القاتل رجل بدين الجسم أصهب شعر اللحية عليه رداء أبيض فلما سمع الغلام هذا

القول أخذ يرويه كحقيقة ثابتة ولو أنه أعيد سؤاله لأصر على أقواله وأكد أنه شهد المعركة ورأى الجريح والسكين والطاعن بها الخ . وقد استنتج الدكتور بريون من هـذه التجارب

اولا — أن الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ست سنوات وخمس عشرة سنة سواء أكانوا في حالة سهر أم في حالة نعاس تسهل إثارة كوامن الأوهام في نفوسهم وتنبيه الأدراك فيهم وحملهم على نسيان الأشياء نسياناً جزئيا وإفساد ذاكرتهم بالخيالات التى لا حقيقة لها

ثانياً — أن الوصول الى التأثير فى الطفل من طريق التجربة هو القاعدة وعدم الوصول اليه هو الاستثناء وأن شهادة الكذب تنجم عن ذلك التأثير

ثالثا — مما يجب على القضاة تذكره عند توجيههم الأسئلة شدة قابلية الأطفال للتأثر والتكيف بأرادة الغير والاحتراز من تصويرهم هـذه الأسئلة فى شكل يلهمهم الجواب عليها

وجهل القاضى هذه القواعد الدقيقة أو التجاؤه فى

حالة العلم بها الى السير مع الطفل من طريق التأثير فيه حتى يصبح شاهدا لاغنى عن سماعه فى التهمة يفضى كلاهما الى وقوع الحوادث الخطيرة . مثال ذلك قضية (تيسزا اسزلار) التى خلاصتها أن بالقرب من نهر طيس (هنكاريا) قرية تسمى (تيسزا أسزلار) يدين أهلها البعض بالبروتستانتية والبعض الآخر بالكاثوليكية وغيرهم باليهودية وكانوا عائشين ظاهراً فى سكون وسلام ومنقسمين باطنا انقساماً شديدا سببه الاختلاف على المسائل الدينية بينهم

واتفق أن امرأة من القرية وهى أرملة (سوجموزى) البروتستانتية المذهب وضعت ابنتها (إستر) البالغة من العمر خمسة عشر عاما فى قرية مجاورة لخادم عند احدى السيدات ففى أول أفريل سنة ١٨٨٢ بعثت بها هذه الى قرية تيسزا فى شراء بعض الحاجيات فأخذت إستر سمتها الى السوق ثم لم يرها أحد بعد ذلك. وفى مساء يوم اختفائها اتفقت كلمة الكاثوليك والبروتستانت على أن لليهود يداً فى الحادث وتدرجوا من هذا الرأى إلى الجزم بأنهم قتلوها

ليلغوا فى دمها وبعد أخذ وردّ صرفوا التهمة الى المدعو (شولتز) الذى يباشر فوق حرفة القصابة (الجزارة) وظيفة تقريب القرابين فى معبد اليهود وما هى إلا ساعة حتى أمر قاضى التحقيق بالقبض على المتهم وفى اليوم الثانى للتحقيق بعث القاضى في طلب (موريتز شارف) أكبر أولاد المتهم البالغ من العمر ١٣ عاما ليشرح له الاعمال التى قام بها والده يوم وقوع الجريمة فبين الغلام هذه الأعمال وعين لكل عمل وقته الذى أنجز فيه وأيد بتصريحاته هذه شهادات أربعين شاهداً سمعهم القاضى وليس فيها إلا ما يبرئ المتهم من التهمة المسندة اليه

وكأنما ساء القاضى أن يسمع من الغلام تلك الشهادة المطابقة للشهادات المجمعة على براءة والده فأمر بالقبض عليه فى الوقت وإلقائه فى غياهب السجن وبعد ساعات من سجنه جيء به إلى القاضى فسرد على سمعه الرواية الآتية التى ما برح يكررها حتى يوم النظر فى القضيه أمام المحكمة وهاك ما قاله : « فى أول أفريل جذب والدى الفتاة اليه

وسار بها الى بيته ثم أرسلها الى المعبد الذى سمعت على أثر ذلك صوتاً منبعثاً منه فذهبت من فورى نحو الباب ونظرت من الثقب فوجدت إستر طريحة على الارض وحولها ثلاثة رجل يمسكونها من ذراعيها وساقيها ثم رأيت والدى شولتر وقد غيب مديته فى جيد الفتاة وتلقى فى إناء الدم الذى كان ينبط من الجرح » على أنه لم يمض زمن بعد هذه الشهادة حتى وجدت جثة الفتاة فى نهر طيس وكانت قد سقطت فيه إما قضاء وإما انتحاراً وحفظت القضية لهذا السبب ولولا أن النهر أفضى بسره الدفين لكان مصير المتهمين شديد العذاب وهول العقاب .

يؤخذ مما تقدم أن التحزب الدينى قد يبلغ من نفس القاضى مبلغاً كثيراً ما يحمله على التأثير فى الشهود الى حد أن يضطر الواحد الى الشهادة ضد أبيه زوراً وبهتاناً وأن الولد إذا دعى الى الشهادة أظهر من القبض والبسط فيها ما يستمكن به من تكرار الحكاية الملفقة بدون خطأ فى ظرف من ظروفها أو انحراف عن روايته الاولى

نعم إن قضاة التحقيق فى فرنسا لا أثر فى نفوسهم لمثل هذه النزعة الغريبة التى زجت بالقاضى الهنكارى فى تيار الوسائط الشاذة التى اتخذها لاظهار مخبآت الحقيقة. ولكن لا يذهب بك الاغترار بعيداً فأن أقل تأثير يسرى من القاضى الى شهوده يفضي الى أسوأ المغبات

يجمع الطفل الى قوة الظهور فى مظهر الصدق أثناء كذبه استعداداً غريباً لتوقع ما سيأتى وإدراك ماسيكون فهو كلما أدى قسما من شهادته أحسّ بما يكون منها مطابقا لميول القاضى الذى يسمعه بل تراه يلتمس إجابته من الأسئلة التى يوجهها اليه ومن التفرس فى وجهه ثم يبقى الكذب فيما ألقى من الشهادة ملازما له ومؤثرا فيه حتى ينتهى به ذلك الى الاعتقاد بصحة ترهاته ومفترياته وإنزالها من ضميره فى منزلة الحقيقة التى لا ريب فيها وربما نجمت عن شهادته النوازل والكوارث على أنه لا يوقن أنه أساء إلا إذا بلغ من السن المبلغ الذى يسهل عليه فيه الحكم على الاشياء وتمييز غثها من سمينها